من قلاية «زوسيما» إلى مسرح السياسة المعاصرة

في أحد أعمق المشاهد السردية في رواية «الإخوة كارامازوف» لفيودور دوستويفسكي، تجتمع عائلة كارامازوف المتناحرة في قلاية الشيخ الناسك «زوسيما» داخل الدير، في محاولة يائسة لفضّ النزاع المالي والأخلاقي المحتدم بين الأب «فيودور بافلوفيتش» وابنه الأكبر «ديمتري». غير أن الأب العجوز، بدلاً من أن يمتثل لوقار المكان وهيبة اللحظة، يقرر منذ اللحظة الأولى تحويل الصومعة الرهبانية إلى سيرك صاخب؛ فيطلق النكات البذيئة، ويفتعل الحركات المسرحية، ويسخر من طقوس الدير، محولاً الجلسة التي صُممت للتحكيم العقلاني إلى فضيحة مدوية يمسك هو وحده بخيوط إيقاعها.

لا تنتمي هذه اللحظة الدوستويفسكية إلى الأدب الروسي في القرن التاسع عشر فحسب، بل تكاد تكون المرآة الأكثر دقة لتشريح المسرح السياسي المعاصر منذ صعود دونالد ترامب إلى سدة الرئاسة الأمريكية. فطوال سنوات، وقفت النخب السياسية والإعلامية والأكاديمية في الغرب حائرة أمام «الظاهرة الترامبية»: كيف يمكن لرجل يحطم كل قواعد اللياقة الدبلوماسية، ويتحدث بلغة الشارع الفجة، ويكيل الشتائم لخصومه وحلفائه على حد سواء، أن يهيمن على المشهد السياسي لأكبر قوة عظمى في العالم؟

ريو موراكامي الراحل قبل أيام: العنف في الأدب وسيلة لكشف الواقع المهمش

الإجابة عن هذا السؤال لا توجد في نظريات العلوم السياسية الكلاسيكية التي تفترض «الفاعل العقلاني» (Rational Actor)، بل في المختبر السيكولوجي الذي شيّده دوستويفسكي في شخصية «فيودور بافلوفيتش كارامازوف»؛ حيث لا تكون الفجاجة والتهريج زلة لسان أو نقصاً في الأهلية، بل تقنية هيمنة متكاملة الأركان.

سيكولوجيا «المهرج المختار».. الوقاحة كدرع هجومي

منذ الصفحات الأولى للرواية (الكتاب الأول: «تاريخ أسرة وديعة»)، يحذرنا دوستويفسكي من الوقوع في الخديعة

البصرية التي ينصبها فيودور بافلوفيتش لمعاصريه؛ فهو يبدو في الظاهر رجلاً طائشاً، غريب الأطوار، يجمع بين الفساد الأخلاقي و«بلادة غريبة»، غير أن هذه البلادة لم تمنعه قط من أن يدير صفقاته ومضارباته المالية بدهاء بارد لا يخطئ. إنه ليس أحمق بطبعه، بل هو «مهرج باختياره»، يرتدي قناع السخرية والابتذال ليربك خصومه ويجردهم من أسلحتهم الأخلاقية.

في الفصل الثاني من الكتاب الثاني («مهرج قديم»، ص 72–80 من ترجمة د. سامي الدروبي)، يكشف فيودور بافلوفيتش بنفسه عن فلسفة هذا القناع حين يصرخ في وجه الحاضرين داخل الدير: «إنني أكذب، أكذب طوال عمري، كل يوم وكل ساعة... سأكون مهرجاً طائعاً مختاراً، لأنكم جميعاً، من أولكم إلى آخركم، أشرّ مني وأجدر بالاحتقار!». في هذه العبارة المكثفة يكمن المفتاح النفسي والسياسي لما يفعله دونالد ترامب على المنابر الانتخابية وفي المؤتمرات الصحفية.

الكتابة امتداد لما هو أكثر عمقا (ترجمة)

فالزعيم الشعبوي يدرك أن الفضاء السياسي الرسمي مثقل بالمساحيق البروتوكولية والمصطلحات المواربة؛ وحين يختار أن يكون «مهرجاً صريحاً» يمارس الوقاحة علناً ودون اعتذار، فإنه ينزع عن نفسه تهمة النفاق ويلصقها بخصومه جميعاً. تصبح الفجاجة هنا درعاً هجومياً يمنحه حصانة ضد النقد؛ فكلما ضُبط متلبساً بكذبة أو تناقض أو ابتزاز مالي، حوّل الأمر إلى عرض ساخر يثبت لجمهوره أنه «يشبههم» في عفويته، بينما تبدو المؤسسة التقليدية التي تحاسبه مجرد نخبة متصنعة تخفي جشعها خلف الكلمات المنمقة. وكما كان فيودور بافلوفيتش يبتز ابنه ديمتري مالياً عبر إغراقه في دفعات صغيرة وفوائد مركبة حتى يظهر صاحب الحق وكأنه هو المعتدي الطماع، يدير «ترامبوفيتش» سياسته الدولية بمنطق السمسار الذي يخلط الأوراق عمداً، ليحوّل التزامات واشنطن وحقوق الشعوب إلى صفقات خاضعة للمساومة والابتزاز.

جنون العظمة ولذة «لعب دور الضحية»

غير أن قناع المهرج لا يعمل بمفرده، بل يتغذى على وقود سيكولوجي أعمق يشخصه الشيخ زوسيما بدقة مذهلة في صومعة الدير. فبعد أن يفرغ فيودور بافلوفيتش من وصلته الاستعراضية، ينظر إليه زوسيما بهدوء ويضع يده على الجرح الغائر في روحه (ص 73–78): «فوق كل شيء، لا تكذب على نفسك. إن الذي يكذب على نفسه ويصغي إلى كذبه يصل إلى حدّ لا يعود يميّز معه أي حقيقة لا في نفسه ولا حوله، وينتهي به الأمر إلى ألا يحترم نفسه ولا يحترم أحداً... إن الرجل الذي يكذب على نفسه أشدّ الناس استهدافاً للإهانة؛ فهو يشعر لغير ما سبب بأنه قد أُهين، مع أنه يعلم في قرارة نفسه أنه لم يُهنه أحد، فيكذب على نفسه ويهوّل كذبته ليجعلها زاهية، فإذا صكّت أذنه كلمة عظّمها وهوّلها، وصنع من الحبة قبة، واجتمع له من ذلك رضا عظيم».

هذا النص الروائي يكاد يكون التأسيس النظري المبكر لما نسميه اليوم سياسة «ما بعد الحقيقة» (Post-truth) والشعبوية النرجسية. فالكذب في الظاهرة الترامبية ليس مجرد أداة دعائية خارجية لتضليل الناخبين، بل هو حالة تماهٍ ذاتي يصدق فيها الزعيم أكاذيبه الخاصة، ويصغي إلى صدى مبالغاته حتى تغيب الحدود الفاصلة بين الواقع والوهم.

والأخطر في تشخيص زوسيما هو ربطه العبقري بين «الكذب على الذات» وبين «التلذذ بدور الضحية». فكيف يمكن لرجل يمتلك المليارات، ويتربع على قمة الهرم الإمبراطوري الأمريكي، أن يقدّم نفسه ليل نهار بوصفه «الضحية الأكثر اضطهاداً في التاريخ»؟ هنا تتجلى المفارقة الكارامازوفية: الجمع بين جنون العظمة الذي يرى الذات محور الكون، وبين مظلومية متضخمة تتوهم مؤامرة كونية تحيكها «الدولة العميقة» والقضاء والإعلام والحلفاء. إن الشعور بالمهانة المصطنعة يمنح فيودور كارامازوف — كما يمنح ترامب وقاعدته الانتخابية — «رضا عظيماً»؛ لأنه يحررهم من أي التزام أخلاقي أو قانوني. فإذا كنتَ «ضحية مؤامرة دائمة»، فإن كل عنف تمارسه، وكل عرف تحطمه، وكل حق تغتصبه، يصبح في وعيك مجرد دفاع مشروع عن النفس وانتقام عادل ممن أهانوك.

من مأدبة البيت الأبيض إلى مأدبة الدير.. هزيمة «النخبة المتأنقة»

لا تكتمل لوحة دوستويفسكي في الدير دون الطرف المقابل لفيودور بافلوفيتش، وهو «بيوتر ألكسندروفيتش ميوسوف»؛ ذلك النبيل الليبرالي المتأورب، المستنير، المعتدّ بثقافته الباريسية ولغته القانونية المتأنقة. منذ شبابه، عانى فيودور بافلوفيتش من نظرة الازدراء الطبقية التي عاملته بها عائلة «ميوسوف» حين كان يُنظر إليه بوصفه

طفيلياً سوقياً لا يليق بمجالس النبلاء. وفي صومعة زوسيما، يعترف فيودور بأن إحساسه الدفين بأن النخبة تراه مجرد مهرج هو ما فجّر داخله رغبة جامحة في الانتقام منها بتحطيم وقارها، قبل أن يترجم هذا الحقد عملياً في الفصل الثامن («فضيحة»، ص 153–166)، حين يقتحم مأدبة رئيس الدير التي يتصدرها ميوسوف، لا ليشاركهم الطعام، بل ليقلب الطاولة ويفجر المأدبة من الداخل.

تتطابق هذه الندبة النفسية على نحو مذهل مع اللحظة التأسيسية التي دفعت دونالد ترامب إلى دخول المعترك السياسي الأمريكي: حفل «عشاء مراسلي البيت الأبيض» في نيسان/أبريل 2011. في تلك الليلة، جلس ترامب بين الحضور بينما اعتلى الرئيس الأسبق باراك أوباما — التجسيد المعاصر لشخصية «ميوسوف» في أناقته الخطابية، واستعلائه الليبرالي، واعتداده بثقافته الدستورية — المنبر ليوجه سهاماً ساخرة لاذعة لترامب وسط ضحك النخبة السياسية والإعلامية في واشنطن وتصفيقها. وكما قرر فيودور بافلوفيتش أن يحوّل ازدراء «آل ميوسوف» له إلى وقود لاقتحام مأدبة الدير وتدنيس هيبتها، خرج ترامب من تلك المأدبة بقرار الانتقام من «مؤسسة أوباما» عبر الترشح للرئاسة، لا ليلتزم بقواعد النخبة التي ضحكت منه، بل ليقلب طاولة النظام السياسي فوق رؤوسها.

ففيودور بافلوفيتش يعرف نقطة ضعف «الليبرالي المتأنق»؛ إنه يدرك أن ميوسوف أسير صورته الاجتماعية وخوفه من الخروج عن اللياقة. ولذلك، يتعمد استدراجه إلى الوحل عبر السخرية الشخصانية، والاتهامات الجزافية، وكسر قواعد الحوار، حتى يفقد ميوسوف أعصابه وينفجر غضباً، فيسقط هيبته بيديه ويخرج من المشهد مهزوماً، بينما يقف فيودور منتشياً بانتصاره المسرحي. وهذا تحديداً هو سر عجز النخب الليبرالية والديمقراطية التقليدية أمام فجاجة الترامبية؛ فالنخبة المتأنقة تدخل المعارك السياسية وهي تحتمي بقواعد اللياقة الشكلية وإحصاءات «تدقيق الحقائق» (Fact-checking)، غافلةً عن أن الكارامازوفية لا تلعب أصلاً داخل حلبة المنطق، بل تهدف إلى هدم الحلبة ذاتها.

بل إن مأزق «ميوسوف» المعاصر يتعمق حين يكتشف أن استعلاءه الثقافي هو نفسه الوقود الذي يغذي شعبية خصمه؛ فالجماهير التي سئمت وعود المؤسسة الليبرالية وشعاراتها المعلبة لا ترى في صلافة «فيودور» انحطاطاً، بل ترى فيها انتقاماً رمزياً من نخبة متعالية تحتقر الناس العاديين. وهكذا يتحول كل هجوم تشنه المؤسسة على فجاجة الرجل إلى شهادة إضافية على «صدقه» في نظر أتباعه، تماماً كما حوّل فيودور بافلوفيتش اشمئزاز الرهبان ونبلاء

المقاطعة منه إلى مسرحية يستعرض فيها تفوقه الساخر عليهم.

خاتمة: حين يحكم «فيودور» العالم

في رواية دوستويفسكي، ظلت الروح الكارامازوفية لفيودور بافلوفيتش حبيسة بيته الريفي وحانات المقاطعة، تمارس عبثها في نطاق عائلي ضيق، وتختزل العالم كله في «مظروف الثلاثة آلاف روبل» الذي ظن الأب العجوز أنه كفيل بشراء الجمال والولاء والكرامة، قبل أن ينتهي وحيداً، محاصَراً بهواجسه وارتيابه المرضي خلف الأبواب الموصدة، قتيلاً على يد الأداة المشوهة (سمردياكوف) التي صنعها إهماله وابتذاله.

أما المأساة السياسية التي يعيشها عالمنا المعاصر، فتكمن في أن «فيودور بافلوفيتش» لم يعد حبيس مقاطعة روسية نائية في القرن التاسع عشر، بل خرج من بطون الرواية ليقبض على مفاتيح القوة العظمى والترسانة النووية. وحين تنتقل الكارامازوفية — بثلاثيتها القائمة على التهريج الهجومي، واصطناع المظلومية، وتشييء العالم إلى صفقات مالية وعقارية — من حانة المقاطعة إلى المكتب البيضاوي، فإن العالم بأسره يتحول إلى مائدة رئيس الدير التي تُقلب فوق رؤوس الجميع؛ حيث تُختزل قضايا الشعوب وحقوقها التاريخية في «مظاريف مساومات» عابرة، وتُستبدل قواعد القانون الدولي بفوضى النزوات الشخصية، في مشهد يثبت أن نبوءة دوستويفسكي لم تكن مجرد تشريح لعائلة مأزومة، بل إنذاراً مبكراً لما يحدث للحضارة حين يرتدي القوةَ مهرجٌ يصدق أكاذيبه.

بين عماليق سريد وعماليق نتنياهو: قراءة لاحقة للسابع من أكتوبر في رواية "الثالث"

الكاتب: إبراهيم عفيفي